الكورونا، الرعب المعلوم، ونهاية التاريخ

العميد د. كميل حبيب

عام 1992 أصدر Francis Fukuyama كتابه الشهير "نهاية التاريخ"، والذي أعلن فيه أن الإنسانية لم تجتاز حقبة في تاريخها الحديث، بل انتهى تاريخها مع سقوط الاتحاد السوفياتي وما نتج عنه من نهاية لتطور العقائد والايديولوجيات، وسيطرة عولمة الديمقراطية الليبرالية كالشكل الأخير من اشكال النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية. بنى Fukuyama اطروحته مفنداً كتابات ماركس وهيغل اللذان رسما تاريخ الإنسانية من خلال خط تقدمي ينطلق من ملحمة اقتصادية – اجتماعية الى أخرى.

لم يكن Fukuyama محقا في اطروحته لأن العولمة سقطت امام التنوع الثقافي العالمي، وهي في أحسن احوالها، لم تف بوعودها في نشر الازدهار الاقتصادي الى كل زوايا الكرة الأرضية. وما وجد فيه Fukuyama نهاية للصراعات الدولية، بدا العالم أكثر تأزما من ذي قبل، إذا ما اخذنا بعين الاعتبار تعافي روسيا الاتحادية وصعود الصين الاقتصادي. هذا يعني أن الصراع على الساحة الدولية بقي سمة الحياة العامة. وهذا الصراع لا يقتصر على الساحة الدولية بل انسحب أيضا على المجالين الإقليمي والحلي.

من وسائل التواصل الاجتماعي التي كان متوقعا منها نشر المعارف وتقريب وجهات النظر فيها يعني إيجاد الحلول للأزمات الدولية (الفقر، والتلوث، وانتهاكات حقوق الانسان ...)، اذا بها تنشر معارف سيئة للكيان البشري. فازدهرت حالة الخداع المعرفي غير المبنية على اية قواعد علمية مثبتة، اذ أصبح كل فرد منصة إعلامية بحد ذاته، يناضل في سبيل حريته ومصلحته الذاتية غير آبه بحياة المجموعة وصيرورتها. هذا لا يعطي الحق للأنظمة الدكتاتورية ان تنتهك حقوق الفرد باسم حقوق الجماعة. ما نتحدث عنه هو الانانية المستشرية عند الافراد والدول.

لم تغير الدول من تقاليدها، فاستثمرت في تصنيع أسلحتها الفتاكة أو شرائها لحماية حدودها ولإقامة التحالفات ضد الدول الأخرى. وما يحكى عن وجود مجتمع دولي وقرية كونية ومصير عالمي برهن بشكل قاطع انه كلام انشائي لا محسوس له على ارض الواقع. وبقي الشك وانعدام الثقة والحقد والكراهية الخاصية الأساس للعلاقات بين الدول. وعاد النقاش في الاروقة الاكاديمية عن توازن القوى الدولي وسباق التسلح وامتلاك المعرفة التكنولوجية لمدخل لامتلاك القوة.

كل هذا الى أن تفشى وباء الكورونا في جمهورية الصين الشعبية، وانتشر بسرعة تفوق سرعة الضوء الى كل انحاء المعمورة. هذا الفيروس القاتل غير المنظور فرض نفسه كعدو للإنسانية جمعاء، وبدت امامه الترسانات العسكرية والاحلاف والقوة الاقتصادية عاجزة عن الحد منه او احتوائه. لا بل ان ردة فعل الدول عكست حدود الدنيا في الافتاء مجاله الطوارئ ودعوة مواطنيها الى التزام منازلهم لفترة زمنية غير محددة. كما تم اقفال المحال التجارية والملاهي والمطاعم والغيت الدورات الرياضية، ومنعت التجمعات والحفلات، وهبطت أسعار أسهم الشركات الكبرى كما هبط سعر برميل النفط بشكل غير مسبوق منذ عام 1992.

هكذا ببساطة وجدت الدول نفسها عاجزة عن إيجاد اللقاح اللازم للقضاء على الوباء المجرم. فجوازات السفر لم يعد معمولا بها، وبقي للإنسان حرية واحدة... حجر نفسه في منزله، حتى دور العبادة -الصلاة والتأمل أقفلت أبوابها امام جموع المؤمنين. وخلال ساعات على تفشي الوباء انتهت عادات وتقاليد عمرها آلاف السنين: المصافحة، والتقبيل، وتبادل الزيارات...الخ.

نعود الى "نهاية التاريخ" عند Fukuyama لنقول ان وباء الكورونا هو من أنهى التاريخ الإنساني القائم على المنافسة والخصومة والعداء. ونهاية التاريخ هنا لا تعني نهاية العقائد والايديولوجيات، بل الانسان. فربما يكون فيروس كورونا قد فتح الباب امام بني البشر ليجاهدوا في سبيل اختراع لقاح للشفاء. الامر الثاني هو ان الوباء الخبيث ألغى الحدود بين الدول بثوان معدودات، وفعل فعله المجنون بوضع نهاية لحياة آلاف البشر، تماما كما كانت تفعل الشركات المتعددة الجنسيات التي جنت أرباحها عبر تجويع مئات الآلاف من البشر. المتغير الثالث هو ان الدبابات والطائرات الحربية وحاملات الطائرات وترسانة الأسلحة النووية تقف اليوم عاجزة امام جرثومة اسمها كورونا. فالدولة العظمى اليوم هي التي يتمكن علمائها من احتواء الفيروس القاتل واختراع العلاج الشفائي له. واذا لم يحصل ذلك في القريب العاجل، فان نهاية التاريخ الاجتماعي لن ينتظره احد لإعلان نعيه.